الفصل الثّاني عشر

أخلاق المرأة المسلمة في القرآن الكريم

البحث الأول:

خُلُقُ الإخلاص لله تعالى

أختي المؤمنة:

الإخلاص لله تعالى فريضة إيمانية كبرى، عليها ترتكز الطّاعات والعبادات.

لقد ذكر القرآن الكريم «إخلاص الدِّين لله» في مواطن كثيرة، كقوله في سورة البيّنة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[1].

الدين الخالص هو الدين السليم الطاهر، الذي لا تشوبه شائبة من شرك أو رياء، ويقال: أخلص الإنسان دينه لله، أي: جعله كله ابتغاء وجه الله، ووقفه عليه محضاً خالصاً من كل عيب أو دنس.

ويقول القرآن في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾[2]. ويذكر تفسير المنار أن إخلاص الدين لله هو أن يتوجه الإنسان بدينه إلى ربه وحده، لا يدعو من دونه أحداً، ولا يدعو معه أحداً، لا لكشف ضر، ولا لجلب نفع، ولا يتخذ

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥، ١٤٦.

من دونه أولياء يجعلهم وسطاء عنده، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصاً له وحده، لا تتوجه فيه النفس إلى غيره، ولا يسأل اللسان سواه، ولا يستعان - فيما وراء الأسباب العامة - بمن عداه.

ويتعرض ابن جرير الطبري للآية فيقول فيما يقول: وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رئاء الناس، ولا على شك منهم في دينهم، وامتراء منهم في أن الله محصٍ عليهم ما عملوا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه، وجزاء المسيء على إساءته، أو يتفضل عليهم ربهم فيعفو، متقربين بها إلى الله، مريدين بها وجهه، فذلك معنى إخلاصهم لله دينهم.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين، بعد توبتهم وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم له، مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الله الدرك الأسفل من النار. ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يقول: وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم دينهم له، على إيمانهم ثواباً عظيماً، وذلك درجات في الجنة.

ويقول الله تعالى في القرآن المجيد في سورة الأعراف: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(١).

ويعلق تفسير المنار على هذا النص الكريم بقوله: والمعنى: أعطوا توجهكم إلى الله تعالى عند كل مسجد تعبدونه فيه حقَّه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل، سواء كانت العبادة طوافاً أو صلاةً أو ذكراً أو فكراً، وادعوه وحده مخلصين له الدين، بأن لا تشوبوا دعاءكم ولا غيره من عبادتكم له بأدنى شائبة من الشرك الأكبر، وهو التوجه إلى غيره من عباده المكرمين، كالملائكة

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

والرسل والصالحين، ولا إلى ما وضع للتذكير بهم، من الأصنام والقبور وغيرها، ولا من الشرك الأصغر، وهو الرياء وحب اطلاع الناس على عبادتكم، والثناء عليكم، والتنويه بذكركم فيها، وكانوا يتوجهون إلى غيره زاعمين أن المذنب لا يليق به أن يقبل على الله وحده ويقيم وجهه له حنيفاً، بل لا بد له أن يتوسل إليه أحد من عباده الطاهرين المكرمين، ليشفع لهم عنده ويقربهم إليه زلفى، وهذا من وسواس الشيطان.

ويقول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾[1].

ويتحدث الفخر الرازي عن هذا النص الكريم، فيقول ضمن ما يقول: إنه تعالى لما بيّن في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب، أردف هنا بعض ما فيه من الصدق، وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص، فهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾ وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ لأن قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾، يفيد الحصر، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور، وينتفي عن غير المذكور. ثم أضاف: أما العبادة فهي فعل أو قول، أو ترك فعل أو ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله.

وأما الإخلاص فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال، فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر، أو معادلاً له أو مرجوحاً، وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط. وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٢-٣.

راجحاً على الجانب الآخر، فقد اختلفوا في أنه: هل يفيد أم لا؟ وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً، ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص، لأن قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهي الوجوه الداعية للشرك، وهي أقسام: أحدها: أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل. وثانيها: أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار. وثالثها: أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيراً في إيجاب الثواب أو دفع العقاب. ورابعها: وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة، وهذا إنما يعتبر على قول المعتزلة.

ويعود الذكر الحكيم ليؤكد الحث على فضيلة الخلاص لله والدعوة إليها، فيقول:

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾[2]. ونلاحظ هنا أن السورة قد بدأت الأمر بإخلاص الدِّين، ثم جاءت هذه الآيات تأمر الرسول ﷺ - ومن ورائه أتباعه - أن يعبد الله مخلصاً له الدين، وأن يقول: الله أعبد مخلصاً له ديني، وقد يظن ظان أن هذا تكرار لا مسوغ له، ولكن الرازي ينفي هذا الظن بأنه لا تكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالإتيان بالعبادة، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله، وذلك لأن قوله: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ يفيد الحصر، يعني: الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه.

ومن عظيم شأن الإخلاص أننا نجد القرآن المجيد ينسبه إلى أنبياء الله ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيقول في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي

(١) سورة البينة، الآية: ٥.
(٢) سورة الزمر، الآيات: ١١-١٥.

ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[١]. وكلمة «مخلصاً» فيها قراءتان، الأولى بفتح اللام عند حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، معناه: أخلصه الله وجعله مختاراً حالصاً من الدنس. والقراءة الثانية بكسر اللام، عند ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والمفضل عن عاصم، ومعناه: الذي وحد الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسة.

وقال الله تعالى في سورة يوسف عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٢]. وفي كلمة المخلصين قراءتان أيضاً.

وفي سورة صٓ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾[٣]. وأخلصناهم أي: اخترناهم واصطفيناهم، والخالصة هي الخلة والصفة، أي: اصطفيناهم بسبب خلة خاصة فيهم، هي تذكيرهم بالدار الآخرة، وذلك شأن الأنبياء.

ولجلال فضيلة الإخلاص لا يستطيع الشيطان أن يسيطر على المخلصين من عباد الله تبارك وتعالى، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة الحجر عن الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٤]. ثم قال الله تعالى بعد قليل يخاطب إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[٥]. وفي سورة صٓ يقول القرآن عن الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٦].

ولقد تكرر قول الله تعالى في سورة الصافات عدة مرات، وفي هذه المرات استثنى الله هؤلاء المخلصين، ليكونوا بمنجاة من مواقف الإثم ومواطن السوء، وليفوزوا بالخير والنعيم في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة ص، الآيات: ٤٥-٤٧.
(٤) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩-٤٠.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٦) سورة ص، الآيتان: ٨٢-٨٣.

يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ٤٩﴾[1]. ويا له من ثواب جليل ونعيم عظيم.

ويقول في السورة نفسها: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾[2]. ثم يقول فيها أيضاً: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[3]. ثم يقول كذلك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[4]. ثم يقول أخيراً: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[5].

وللإخلاص ثمرات كثيرة جليلة منها ما يلي:

أولاً: محبة الله تعالى لمن أخلص له، فقد جاء في الأثر أن الله تبارك وتعالى يعطي الإخلاص لمن يحبه كما يقول الرسول ﷺ فيما يرويه ابن ماجه: **«مَنْ فارقَ الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راضٍ»**[6].

ثانياً: قبول الله تعالى من المخلص، لأن الحديث يقول: **«إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»**.

ثالثاً: انقطاع الوسواس عن الإنسان، ولذلك يقول أبو سليمان الداراني الصوفي: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسواس والرياء.

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ٣٨-٤٩.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٧٣-٧٤.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧-١٢٨.
(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩-١٦٠.
(٥) سورة الصافات، الآيات: ١٦٧-١٦٩.
(٦) وإسناده ضعيف، ضعيف سنن ابن ماجه، ص٧.

رابعاً: صرف السوء والفحشاء عن الشخص المخلص، ولعل هذا بعض ما نفهمه من قول الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

خامساً: تفجر الحكمة من المخلص، فقد قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

سادساً: نصر الله للمخلص، لقول النّبيّ ﷺ فيما يرويه النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم».

سابعاً: زيادة مضاعفة الحسنات، فإذا كان الله تبارك وتعالى قد وعد - وهو الكريم وصاحب الفضل العظيم - بأن يثيب الحسنات بأضعافها وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2]، ووعد بأكثر من العشرة إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما فوق السبعمائة، فإن هذه الزيادة في الأضعاف تنمو بحسب تمكن الإخلاص من نفس المؤمن، فكلما زادت مكانته في الإخلاص علواً، زادت مثوبته على الحسنات أضعافاً مضاعفة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

ولهذا قال معاذ بن جبل: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قلت له: يا رسولَ الله، أوصني. فقال: «**أخلص دينك يكفك القليل من العمل**»[3] أي: اجعل إيمانك خالصاً مما يشوبه من شهوات النفس، واجعل طاعتك كلها لوجه الله، يصبح القليل من عملك كثيراً مباركاً[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإنعام، الآية: ١٦٠.
(٣) إسناده ضعيف، ضعيف الجامع الصغير برقم ٢٤٠.
(٤) أخلاق القرآن، ج٢، ص ١٧٤-١٨٢.

البحث الثاني:

خُلُقُ الثّبات على الحقّ

أختي المؤمنة:

الثّبات خلق من أخلاق القرآن الكريم، نحتاج إليه أشد الاحتياج، لأن طريق العبادة والطاعة طويل، لا بد له من ثبات واستقرار، وطريق العمل والسعي الحميد في الحياة طويل لا بد له من ثبات واستقرار، وطريق الحرية والعزة والكرامة طويل لا بد له من ثبات واستقرار، وطريق الأبطال وتحقيق الآمال بكريم النضال طويل لا بد له من ثبات واستقرار، ولذلك نادى الله جل جلاله عباده الأخيار بقوله في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عباده بأن الثبات صفة كريمة من صفات المؤمنين، تتحقق لهم عن طريق الاهتداء بهدي القرآن المجيد، وبالإقبال على طاعة الله والاعتصام بحبله وهداه، فقال في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢)، وقال في سورة محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٣). ومتى مَنَّ الله تعالى على عباده بالتثبيت فقد تحقق لهم الثبات.

كما أخبر الحق سبحانه بأنه قد مَنَّ على رسوله محمد ﷺ بنعمة الثبات، وإنما تحقق الثبات لرسول الله بفضل الله، وبما آتاه من وحيه، وبما قص عليه وذكر له في قرآنه الكريم من آيات وأنباء وعظات، ولذلك يقول في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾(٤) ويقول في سورة هود: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ٧.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[١] ويقول في سورة الإسراء: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[٢]. فالله تعالى قد أقر رسوله على الحق، وحصنه به، وعصمه من موافقة الكافرين، وكان رسول الله يدرك خير الإدراك فضل الله العظيم عليه في هذا التثبيت، ولذلك كان يدعو فيقول: «**اللَّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**».

ومن المواقف المشهودة التي تحتاج إلى الثبات، وإلى الاعتصام بحبل الله القوي المتين موقف الجهاد ومقاومة الأعداء، ولذلك جاء في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣]. والثبات في الجهاد قوة معنوية لها قيمتها، فقد يكون السلاح والعتاد في أيدي المجاهدين، وفيهم الكثرة والقوة الحسية، ومع ذلك يظلون في حاجة إلى ما هو أهم، وهو القوة المعنوية المتمثلة في الثبات، والبصراء بأمور النضال يقررون أن الثبات يكون في كثير من الأحيان السبب القوي والأخير للنصر والفوز، فالجيوش تتقاتل وتتصارع، والأكثر منه صبراً ودواماً واستمراراً هو الذي يتغلب ويفوز، ولعل هذا هو الذي جعل القرآن المجيد يحذر تحذيراً شديداً من ترك الثبات في القتال، ويتهدد من يتنكر لهذا الخلق الكريم بالعقاب والعذاب، فيقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[٤].

وقد ربط القرآن برباط دقيق بين الثبات الحسي والثبات المعنوي، حين يتوافر الإيمان واليقين لدى أهله، ولذلك قال للمؤمنين في شأن غزوة بدر:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ يُلقي عليكم النوم كالغشاء لتأمنوا وتستريحوا وتقووا ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.
(٤) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾(١).

فالقرآن يجمع هنا بين الربط على القلوب، وهذا هو الثبات المعنوي، وتثبيت الأقدام - وهذا استقرار حسي - فالذين آمنوا بربهم لا يستخفون بأسباب الثبات الحسي، كما لا يستخفون بأسباب الثبات المعنوي، بل يجعلون شعارهم كما ذكر القرآن في سورة آل عمران:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ منسوبون إلى الرب لإيمانهم وحكمتهم ﴿كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾(٢).

وكما ذكر في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾(٣) (٤).

البحث الثالث:

خُلُقُ التواضع للحقّ والخلق

أختي المؤمنة:

لم ترد كلمة التواضع بلفظها في القرآن الكريم، ولكن وردت كلمات تشير إليها وتدل عليها، مما يجيز أن نعد التواضع خلقاً من أخلاق القرآن، فالله تبارك

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ١١-١٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦-١٤٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.
(٤) أخلاق القرآن، ج١٠، ص٩٦-٩٨.

وتعالى يقول في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[١] أي: يمشون على الأرض هيّنين، أو يمشون مشياً هيناً، لأن الهَوْن - بفتح فسكون - هو الرفق والسهولة، والحديث يقول: «أحبب حبيبك هوناً ما»[٢] أي: بدون إسراف أو مبالغة. ويقول: «المؤمنون هيّنون ليّنون»[٣]. ويقال: هان الأمر على فلان، أي: سهل، وفي القرآن الكريم: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[٤] وفيه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٥].

فقوله تعالى عن الأخيار من عباده: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: يمشون متواضعين بسكينة ولين ووقار، وإذا كان الهَوْن - بفتح فسكون - هو اللين والرفق، فإن الهُوْنَ - بضم الهاء - هو الهوان أو الذل، وهذا من صفة غير المؤمنين، والعلماء يذكرون أن الهوان على وجهين: الأول تذلل الإنسان في نفسه باختياره فيما لا يعيبه، وهذا من شأن المؤمنين، والآخر أن يكون من جهة متسلّط مستخفّ به، وهذا من شأن الحقراء، كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[٦].

ومن الآيات التي تشير إلى خلق التواضع قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٧].

والمراد بالذلة في الآية الكريمة: الرحمة والشفقة واللين، وليس المراد بها

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٢) صحيح سنن الترمذي برقم١٦٢٥.
(٣) حديث حسن، صحيح الجامع برقم ٦٦٦٩.
(٤) سورة مريم، الآية: ٩.
(٥) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

الهوان، فالمؤمن - كما قيل - ذَلُول، أي: عطوف على مستحق العطف، وغير المؤمن ذليل، أي: صاحب هوان.

والعزة على الكافرين يراه بها القوة والغلبة، ولذلك قال عطاء عن وصف المؤمنين في هذه الآية: إنهم للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته. والمقصود هنا طبعاً هم الكافرون المعتدون، لا مجرد الذين خالفوا في الدّين دون عدوان.

وكذلك جاء قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]. والمعنى قريب من معنى الآية السابقة، وذكر القرآن الكريم بعض مظاهر التواضع، فقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[2]. وقال في سورة لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[3]. والمرح هو: الاختيال والبطر، وتصعير الخد هو إمالته تعاظماً وتكابراً، والمختال هو المتباهي، والقصد في المشي هو الاعتدال فيه، والغض من الصوت هو نقصه وخفضه.

والتواضع ضده التكبر، سواء أكان التكبر بالعلم، أم بالعبادة، أم بالنسب، أم بالجمال، أم بالمال، أم بالقوة، أم بالشهرة، أم بكثرة الأتباع، أم بغير ذلك؛ وإذا كان القرآن الكريم قد حمد التواضع، ووعد بالخير أهله، فإنه قد حمل حملة صارمة على التكبر وأهله، فقال في سورة الأعراف: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[4]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.
(٣) سورة لقمان، الآيتان: ١٨-١٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

جَبَّارٍ﴾[١]. وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢]. وقال: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٣].

والتواضع خلق يرتفع في ميزان القرآن الكريم حتى يجعله حلية للأنبياء والمرسلين، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، وحينما وصف القرآن سيدنا رسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة والحرص على خير الناس، أراد أن يشعرنا بأنه المثل الأعلى في التواضع. وها هو ذا رب العزة يخاطب نبي الرحمة في سورة آل عمران بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٤]. ويقول له في سورة الشعراء: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ كن رحيماً بهم عطوفاً عليهم ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] [٦].

البحث الرابع:

خُلُقُ البِرّ والإحسان

أختي المؤمنة:

البر في تعبير القرآن الكريم يفيد معنى الإيمان وما يتبعه من أعمال، فهو يشمل صحة الاعتقاد واستقامة التطبيق، ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

(١) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٦) أخلاق القرآن، ج١، ص٦٨-٧٢.

عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]. ولقد رووا أن رسول الله ﷺ سئل عن البر، فتلا هذه الآية الكريمة.

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك - أي تردد - وكرهت أن يطلع عليه الناس**». ويقول في حديث آخر: «**البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**».

وهذا هو القرآن الكريم يعطر ذكر البر في مواطن منه، ونحن نرى من جلال مكانة البر أن الله تبارك وتعالى قد جعل لذاته القدسية اسماً مشتقاً من مادته، وهو اسم «البَرُّ» فقال القرآن في سورة الطور: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] أي: العطوف على عباده، الشامل لهم ببرّه ولطفه ورعايته.

وجعل القرآن المجيد فضيلة البر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين، فقال في سورة مريم عن زكريا عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[3]. وقال في السورة نفسها على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[4].

ووصفت السنة المطهرة ملائكة الرحمن - وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون - بأنهم بررة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**» يعني: الملائكة.

ومن دقائق التعبير في القرآن الكريم أنه بعد أن عدد أعمال البر الكثيرة الكبيرة في آية البر: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[5] إلخ. ختم هذه الآية بقوله عن أولئك الأبرار الأخيار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[6]. ولو رجعنا إلى الآية الكريمة التي فرض الله فيها فريضة الصوم على عباده لوجدناها تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٨.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٤.
(٤) سورة مريم، الآية: ٣٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] فهناك في آية البر قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهناك في آية الصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فكأن الصيام طريق يؤدي إلى تحقيق البِرِّ، لأنّ البر كما ذكرت الآية صفة المتقين، وكذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٢]. والتقوى معنى كبير واسع، فالتقوى وقاية وصيانة من جهة بالابتعاد عن كل سوء ورذيلة، والتقوى قوة وحصانة من جهة أخرى بإتيان كل عمل طيب وسعي حميد.

والبر يتفرع إلى ألوان وأنواع، فهناك البر بالإنفاق لوجه الله تعالى، وفيه يقول ربّ العزة: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾[٣]. ولقد ضرب أسلافنا أروع الأمثال في برّهم بإنفاق أموالهم في سبيل الله ﷻ، حتى استحقوا أن يقال فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾[٤]. وأن يقال فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٥] ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٦]. وكان منهم أبو بكر الذي بذل ماله كله في سبيل الله، وكان منهم عثمان مجهز الجيوش، وكان منهم عبد الرحمن بن عوف ﷺ صاحب الباع الطويل في الإنفاق، وعلى قمة الأبرار الأجواد يأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، فهو في جوده حينئذ كالريح المرسلة.

وهناك بر الوالدين، بعدم عقوقهما أو الإساءة إليهما، وبالإحسان إليهما كل الإحسان، ولذلك يقول الرحمن: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٤) سورة الإنسان، الآيتان: ٨-٩.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٦) سورة التغابن، الآية: ١٦.
(٧) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤.

وهناك بر الأقارب وذوي الأرحام، والقرآن يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. وجاء في الحديث القدسي: أنّ الرحم قالت لربها: «هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال لها: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك لك»[2]. وفي الحديث النبوي: «تعلَّمُوا من أنسابِكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صله الرحم، محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»[3].

وهناك البر في الكلام والحديث، فإن الكلمة الطيبة نوع من البر، والله تعالى يقول في سورة المجادلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[4]. وقد حبب القرآن المجيد أقوى تحبيب في البرّ بالكلام. فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[5] ويقول الله تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾[6] [7].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٥.
(٢) حديث في صحيح مسلم ٢٥٥٥.
(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٩٦٥.
(٤) سورة المجادلة، الآية ٩.
(٥) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤-٢٥.
(٦) سورة الحج، الآية: ٢٤.
(٧) أخلاق القرآن، ج١، ص٢٣٤-٢٣٨.

البحث الخامس:

خُلُقُ التّعاون على البرّ والتقوى

أختي المؤمنة:

التعاون هو تبادل المعونة، يقال: تعاونوا واعتنوا، ومادة «العون» تدل في أصلها اللغوي على القوة والفائدة، والعون هو الظهير على الأمر المقوى عليه، والاستعانة طلب المعونة، والعون المعاونة والمظاهرة، يقال: فلان عوني أي: معيني.

والتعاون خلق من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم.

وإذا نظرنا إلى طبيعة الإنسان وطريقته في الحياة رأينا أنه مدني بطبعه، أي: أنه اجتماعي بفطرته، ويصعب عليه أن يعيش منفرداً عن غيره من بني جنسه، ولا يستطيع أن يقوم منفرداً بكل مطالب الحياة، ولعل هذا هو الذي جعل الإنسان يحاول منذ فجر التاريخ البشري أن يلجأ إلى منظمات متوالية لتحقيق هذا التعاون، فبدأ بالأسرة، وانتقل إلى القبيلة ثم الدولة ثم منظمات أخرى.

وقد ينظر كثير من الناس إلى التعاون على أنه نظام اقتصادي مادي فقط، ولكن الإسلام ينظر إليه على أنه أصل من أصول الدين، ومبدأ من مبادئه، وأنه نظام يساعد على الخير، وأنه خلق يثاب عليه أهلوه، وأنه فضيلة ترفع صاحبها إلى درجة الأخيار من عباد الله.

ومن مكانة التعاون العليا أن من صفات الله تعالى أنه «المستعان» فذلك حيث يقول القرآن الكريم في سورة يوسف: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1]. أي هو الله الواحد القادر الذي يلجأ إليه النّاس ليطلبوا منه العون على ما لا يقدرون عليه من متاعب الحياة أو بغي الأحياء.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

ولأمر ما ولحكمة بالغة جعل الله عباده المؤمنين يتذكرون على الدوام أن يسألوه المعونة، وأن يخصوه برجاء العون منه، لأنه سبحانه يقدر على ما لا يقدر عليه سواه، فشرع لهم أن يقولوا في كل صلاة من كل يوم:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١).

ولعلو مكانة التعاون المادي والأدبي نجد القرآن الكريم يقول في سورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢).

إنه سبحانه قد قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ فاستعمل صيغة الأمر العام، ولم يكتف بذكر جواز التعاون أو إباحته، بل أوجبه وطالب به، وهو قد وجه الخطاب في الأمر إلى الجميع وإلى كل القادرين على تحقيق المطلوب، فلم يجعل الأمر مقصوراً على طائفة من الناس دون طائفة، بل جعل المطالبة موجهة إلى الجميع، وهذا يفيد وجوب شمول التعاون للمجتمع وأبنائه، وهو يوجه التعاون ليكون في الأغراض الطيبة الطاهرة النافعة للفرد والجماعة، فذكر البر والتقوى موضعين لهذا التعاون، والبر هو التوسع في فعل الخير والعمل الصالح، والتقوى هي اتقاء كل ما يضر الفرد أو الجماعة في الدين والدنيا، وفي الحسيات والمعنويات، وهو يحذر أن يكون التعاون على باطل أو إثم أو ضرر، فنهى أن يكون التعاون على الإثم والعدوان، والإثم هو كل فعل قبيح لا ترضاه العقول السليمة، ولا تقبله النفوس القويمة، والعدوان هو تجاوز حدود الشرع والعرف الصحيح في المعاملة.

ويعرض علينا القرآن الكريم صورة من التعاون تتعلق برسولين من رسله، هما موسى وهارون عليهما السلام، فعلى الرغم من أن موسى نبي ورسول لم يتردد أن يطلب من ربه أن يحقق له عن طريق التعاون مزيداً من التعاون، حتى يستطيع أداء الرسالة على الوجه الطيب، ولذلك قال يدعو ربه تبارك وتعالى:

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾[1].

والقرآن المجيد يقرر أن التّعاون كما يكون في وقت السّلم يلزم أن يكون في وقت الحرب ولذلك يقول في سورة الصف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[2].

ولا يتحقق الصّف إلا بالتّجمع والترابط والتّعاون، والبنيان المرصوص هو المتلاصق المحكم، ولا يتم هذا إلّا بتعاون وثيق[3].

البحث السادس:

خُلُقُ طهارة النّفس

أختي المؤمنة:

الطهارة نوعان: طهارة حِسّ وطهارة نفس، أو طهارة جسم وطهارة قلب. وأغلب الآيات التي جاء فيها ذكر التطهر لا تخرج عن هذين النوعين، وكل من النوعين يحث عليه القرآن المجيد ويدعو إليه وينوّه به، وفيما يتعلق بطهارة الحس نجد القرآن يمنّ بنعمة الله على عباده فيقول في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾[4] أي: طاهر مطهراً معيناً على التطهر، ويقول في سورة الأنفال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[5].

ويأمر بالتطهر عن طريق الاغتسال عند وجود داعيه فيقول في سورة المائدة:

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩-٣٢.
(٢) سورة الصف، الآية: ٤.
(٣) أخلاق القرآن، ج٥، ص١٧٠-١٧٤.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.
(٥) سورة الأنفال: الآية: ١١.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[١] ثم يعود في الآية نفسها ليقول: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢]. ويقول في سورة البقرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[٣]. ولقد جعل الإسلام الماء أساساً للطهارة الحسية، وضمن للمسلم مواطن كثيرة للتطهر المادي حين شرع الاغتسال والوضوء وإزالة النجاسة، والحرص على نظافة البدن والثوب والمكان، وربط هذه الأنواع من التطهر بأسباب كثيرة تتكرر في حياة الإنسان تكرراً متقارب المرات، كما شرع الإسلام التخلل والسواك، وسُنن الفطرة المؤدية إلى التنظف والتطهر، ومنع المعاشرة الزوجية إذا لم تكن الزوجة طاهرة لوجود الحيض أو النفاس عندها، بل منع الإسلام المسلم أن ينال شرف القيام بعبادته لربه إذا لم يكن طاهراً، فالرجل لا يستطيع الصلاة إذا كان جنباً أو محدثاً، بل لا بد له من الاغتسال أو الوضوء، والمرأة التي لم تنته من الحيض أو النفاس لا تستطيع أن تصلي ولا أن تصوم ولا تطوف بالبيت الحرام، ولا تمس المصحف ولا تقرأ القرآن...

ولا ريب عند عاقل أو منصف في أن الإسلام هو دين الطهارة والتطهر في كل مجال يلائمه التطهر.

وبجوار التطهر الحسي عُني القرآن المجيد بالتطهر النفسي أو القلبي أو الأخلاقي، فقال القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]. ومعنى الآية في إيجاز: إذا طلقتم النساء فأتممن العدة فلا تمنعوهن أن يراجعن أزواجهن الأولين إذا تراضوا بينهم ذلكم أطهر لكم والله يعلم ما لا تعلمون، أي: ذلك خير لكم وأفضل، وأطهر لقلوبكم من الريبة، فقد يكون في قلب هذه

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

المرأة المطلقة حب لرجل آخر تريد أن تتزوجه، فإذا عضلها مطلقها وأعادها إلى عصمته بغير اختيارها فقد تتطلع إلى غيره فلا يبقى قلبها طاهراً.

ويقول القرآن عن نساء النبي في سورة الأحزاب:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[١] أي: أحفظ لقلوبكم وقلوبهن من الريبة وخواطر السوء.

وكذلك عني القرآن الكريم بالحديث عن الطهارة التي تحتمل نوعين: التّطهر الحسي، والتّطهر النّفسي، فقال في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢]. وقد قال بعض المفسرين أن المعنى: طهرا بيتي وهو الكعبة من الفرث والدم الذي كان يطرحه المشركون عند البيت، أو طهراه من الأصنام التي كانوا يعلقونها على باب البيت، أو طهرا بنيانه بإكماله على الطهارة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

وفي سورة المدثر يقول القرآن: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٤].

وللمفسرين في هذا النّص الكريم أقوال منها: طهّر عملك، لأنهم يقولون لمن يحسن العمل: فلان طاهر الثياب، وللخبيث العمل: فلان خبيث الثياب. أو: طهر قلبك ونفسك من الإثم والذنوب، أو طهر دينك وخلقك، أو طهر جسمك، وملابسك، أو طهر نفسك من المعايب.

ومما يحتمل طهارة الحس والنفس وصف السُّنة النّبوية للزكاة بأنها طهرة للمال، وأن زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو، وللتطهر في الإسلام مراتب، وتبدأ في المراتب بتطهير الحسّ عن النجاسة والأقذار والأخباث، ثم يأتي التطهر لأعضاء الجسم عن الجرائم والآثام، ثم يأتي تطهر القلب عن الرذائل

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٤.

والأخلاق الذميمة، ثم يأتي تطهر السّرّ عمّا سوى الله ﷻ، وهذه المرتبة الأخيرة هي مرتبة الأنبياء والصديقين.

ولقد أشار الغزالي إلى هذه المراتب، وذكر أن طهارة الظاهر تكون بالماء، وطهارة الباطن تكون بالفضائل، ثم يذكر أن أهم الأمور هو تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد من قول النّبيّ ﷺ: «**الطهور نصف الإيمان**» عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه، مع تخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار، ومما يشرّف شأن التطهر أن يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾[1] أي: لا يبلغ حقائق معرفته إلا من طهر نفسه، وتنقى من درن الفساد، هكذا ذكر الأصفهاني.

ومما يشرّف شأن التطهر أن يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «**مفتاحُ الصّلاةِ الطَّهُورُ**» وأن الرسول كان يدعو ربّه بأن يجعله من المتطهرين، وجاء في حديث الدعاء: «**اللّهم اغفرْ ذنبَهُ وطهّر قلبَهُ**».

وهناك من وراء إمام الأنبياء نماذج فاضلة زانها ربها بنعمة الطهارة وفضيلة التطهر، والله جلّ جلاله يقول لنبيّه وعبده عيسى ابن مريم: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] أي: مطهرك بإخراجك من بينهم، وإنجائك منهم فهم أرجاس، وصيانتك من كفرهم. ولقد عرفنا أن الله تعالى طهّر أمه مريم، أي: طهرها بالإيمان عن الكفر، وبالطاعة عن المعصية، وطهرها من الفاحشة، وطهرها من الأخلاق السّيّئة والرّذائل الشّائنة.

وهؤلاء هم أهل بيت رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، يزينهم ربهم بالتطهير، فيقول عنهم في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٧-٧٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

كما يمجد القرآن ذكر قوم سبقوا بالإيمان وإخلاص العمل والطاعة في المسجد الذي أسس على التقوى، فيقول في سورة التوبة: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[1] أي: المتطهرين في نفوسهم وحواسهم، التاركين للذنب، والعاملين للصلاح.

وأزواج المؤمنين في الجنة أزواج مطهرة، ويذكر القرآن ذلك على أنه نعمة وفضل، وحلية وزينة، فيقول في سورة البقرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]. ويقول في سورة آل عمران: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3]. ويقول في سورة النساء: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[4] وشراب الجنة الذي يسقيه الله لأهل الجنة موصوف بالطهارة، حيث يقول القرآن في سورة الإنسان: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[5] أي: مطهراً يخرج ما في بطونهم من الأذى، وينزع ما في قلوبهم من الغل والحسد.

وكتب الله تعالى وصحفه يصفها القرآن بالطهارة، فيقول في سورة عبس: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾[6]. وقال في سورة البينة: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[7] أي: منزهة من الضلال والشك، مطهرة من كل دنس، مصانة من أن ينالها الكفار، ومطهرة عن أن تنزل على المشركين، أو لا ينبغي أن يمسها إلا المطهرون.

فما أجدر المؤمن البصير بأن يتخذ من فضيلة التطهر حصناً يحول بينه وبين الزلل والانحراف.. ما أجدره بأن يتطهر في عقيدته، فيتمسك بعقيدة الصفاء

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٥٧.
(٥) سورة الإنسان، الآية: ٢١.
(٦) سور عبس، الآيات: ١٢-١٤.
(٧) سورة البينة، الآية: ٢.

والنقاء، التي لا ريب فيها ولا التواء؛ عقيدة التوحيد التي لا يرتضي العقل السليم سواها: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١] وأن يتطهر في عبادته، فلا يرائي بها أو يخادع، بل يبتغي بها وجه الحق سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[٢] وأن يتطهر في كلامه، فيجعله طيباً صادقاً صادعاً بالحق، داعياً إلى الخير، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٣] وأن يتطهر في نظره، فلا يملأ عينيه من شيء غيره، ولا يتطلع إلى ما ليس له حق في التطلع إليه، ولا يَتَتَبَّعُ عوراتِ النّاس ببصره، فإن الحق جلّ جلاله يقول: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[٤] وأن يتطهر في ظنه، فلا يجعله سيئاً دون موجب: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٥] وأن يتطهر في معاملته مع غيره، يحب للناس ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.

وأن يتطهر في مظهره ومخبره، في أحواله وأعماله، في انفراده واجتماعه، وبذلك ينال رضا الله ومحبته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٦] [٧].

البحث السابع:

خُلُقُ الحياء

أختي المؤمنة:

الحياء خلق من أخلاق القرآن، فقد ذكر الله تبارك وتعالى مادة الحياء في ثلاثة مواطن، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[٨] وقال في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٩.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٧) أخلاق القرآن، ج٣، ص٥٦-٦٩.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غير منتظرين نُضْجَهُ واسْتِواءَه ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1]. وقال في سورة القصص: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[2].

وقد تعرَّضَ المفسرون لمعنى الحياء أو الاستحياء في هذه الآيات، فقالوا في معنى الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦ﴾ أي: لا يدع ولا يترك ولا يمتنع، لأن الإنسان إذا استحيا من شيء تركه وامتنع عنه، وقيل: إن المعنى هو أن الشيء الذي يستحيي منه يكون قبيحاً في نفسه، ويكون لفاعله عيب في فعله، فأخبر الله تعالى بأن ضرب الأمثال ليس بقبيح ولا بعيب حتى يستحيي منه. وقالوا في الآية الثانية: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ إن المعنى هو أنها جاءت نحوه وقد سترت وجهها بثوبها، أو بيدها، أو جاءت ماشية على بعد مائلة عن الرجال، أو جاءته وهي على إجلال له وإكبار.

وقالوا في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3] إن هذه الآية قد نزلتْ في شأن قوم كانوا يتحينون وقتَ إطعامِ النّبيّ ﷺ، فيدخلون بيته، ويقعدون منتظرين إدراك الطعام، ثم يأخذ بعضهم يحدِّث بعضاً مطيلين الجلوسَ والحديثَ، وكان هذا يُؤذي النَّبيَّ عليه الصّلاة والسّلام، لتضييقِ الدّارِ عليه وعلى أهله، ولصرفه عن شؤونه، وكان النّبيّ ﷺ يستحيي من دعوتهم إلى الخروج، ولكن الله تعالى لا يترك التنبيه على ذلك لأنّه حقٌّ.

ومن هذا الاستعراض السّريع لآيات الحياء في القرآن الكريم نفهم أنّ الحياء جاء مرة منسوباً إلى الله ﷻ، ومرّةً منسوباً إلى رسول الله ﷺ، ومرّة منسوباً إلى إحدى الفتيات الطاهرات العفيفات.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وإلى جوار الآيات التي ذكرت مادة «الحياء» صراحة، جاءت آيات ترمزُ إلى الحياء وتشير نحوه، وهي الآيات التي تُذكّر الإنسان باطلاع الله على كل أحواله وأموره، فإن استحضار ذلك في نفس المؤمن يجعلها متجملة بالحياء والحشمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(١). وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٢). وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾(٣). وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾(٤). وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٥). وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٦). وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٧).

وخلق الحياء وثيق الصّلة بيقظة الضمير، ويقظة الضمير وثيقة الصلة بحياة القلب وصفائه، ولذلك يرى ابن القيم أنّ الحياء من الحياةِ، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه خُلُقُ الحياء، وإن قلة الحياة من موت القلب والروح، فكلّما كان القلب أحيى كان الحياء أتمّ(٨).

البحث الثامن:

خُلُقُ الرحمة والرأفة

أختي المؤمنة:

الرحمة فضيلة إسلامية قرآنية، تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر

(١) سورة هود، الآية: ٥.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.
(٣) سورة العلق، الآية: ١٤.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١.
(٦) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٧) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٨) أخلاق القرآن، ج١، ص٨٨-٩٠.

الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، بل هو يحس بآلام الآخرين ويقدر مشاعرهم، ويسهم في معاونتهم، ويخفف عنهم حينما يستحقون التخفيف، والرحمة خلق لا يتنافى مع التأديب اللازم والعقاب المناسب، والله وهو خير الراحمين لم تتناف رحمته الشاملة الكاملة مع عقوباته التي حددها، وزواجره التي توعد بها، لأن تشريع الله الحكيم يمضي بين الترغيب والترهيب على صراط سواء.

وليست الرحمة خلق ضعف كما يزعم بعض الزاعمين، لأن الرحمة الأصيلة هي التي تنبعث عن قدرة ذاتية تستطيع أن تكون حازمة وصارمة، ولكنها تقدر الظروف، وتشعر بالمشاركة الوجدانية، فتتنازل عن بعض حقها عن طيب خاطر، وتترفق بمن يستحق الترفق واللين، فهي في الواقع قوتان لا قوة واحدة: قوة الاقتدار، ثم قوة التحكم في النفس لحملها على أن ترحم، وقد كانت قادرة على أن تقسو وتعنف.

وللرحمة مواطن كثيرة، فهناك موطن الرحمة بالأبوين، والرحمة بالأولاد والزوجات، والرحمة بالأقارب وذوي الأرحام، والرحمة باليتامى والمساكين والضعفاء كالمرضى والمصابين وذوي العاهات، ثم الرحمة بالحيوان، وهكذا تتسع آفاق الرحمة حتى تشمل جوانب فسيحة من الحياة، وعدداً ضخماً من الأحياء.

وقد حثّ القرآن الكريم على التحلّي بفضيلة الرحمة مع أحقّ النّاس بهذه الرحمة وهم الآباء والأمهات، فقال القرآن في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ كلمة تضجر ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

يذكر بعض المفسرين - وهو القرطبي - في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤.

﴿ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ إنّ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما، والتّذلل لهما، وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده، والذل هو اللين، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظراته، ولا يحد إليهما النظر.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ لبيان الجنس، أي: إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النّفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، فيقول للإنسان إنه يجب عليك أن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقا بك، إذ تولياك صغيراً جاهلاً محتاجاً، فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعريا وكسياك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتتولى منهما ما توليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم.

وأرشد القرآن إلى أن علاقة الزوج بزوجته ينبغي أن تنهض على المحبة والرحمة، فقال في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. والرحمة بين الزوجين تتطلب المعاشرة بالمعروف، واحتمال الهفوة وصنع الجميل.

وكذلك وصف القرآن أتباعَ محمّد عليه الصّلاة والسّلام، الذين استجابوا له وساروا معه، بأنهم رحماء فيما بينهم، فقال في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]، وأشار إلى مثل هذا حين قال في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]. وجعل القرآن من صفات المؤمنين أن يوصي بعضهم بعضاً برحمة الضعيف والتعطف عليه، فقال في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[4]. وحذر من الإفساد في

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٤) سورة البلد، الآية: ١٧.

الأرض وجعله قريناً لتضييع معاني الرحمة من النفوس، فقال في سورة محمد: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[١] وتقطيع الأرحام كناية عن ترك المودّة والتّواصل، وعن فساد العلاقات.

ويدل على جلال صفة «الرحمة» أنها صفة من صفات الله ﷻ، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في جملة آيات، فقال في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٢]. وفيها: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[٣]. وفي سورة يوسف: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٤]. وفي سورة المؤمنون: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[٥]. وفي سورة غافر: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٦]. وهناك عشرات من الآيات الكريمة جاء فيها وصف الله تعالى بالرّحمة.

ونجد كل سورة من سور القرآن الكريم مبدوءة بقول الله جل جلاله: «بسم الله الرحمن الرحيم» ولفظ الرحمن كما يقول بعض المفسرين يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي إفاضة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، على أنها من الصفات الثابتة الواجبة، فالرحمن هو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، والرحمن هو الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبداً. ويقول الإمام محمد عبده: الرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة، وهي معنى يلم بالقلب فيبعثُ صاحبَهُ ويحمله على الإحسان إلى غيره، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر، لأنه في البشر ألَمٌ في النفس شفاؤُه الإحسان، والله تعالى منزّه عن الآلام والانفعالات، فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الإحسان إلى خلقه وعباده[٧].

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٦٤.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١١٨.
(٦) سورة غافر، الآية: ٧.
(٧) أخلاق القرآن، ج١، ص: ١٢٢-١٢٥.

البحث التاسع:

خُلُقُ السكينة والوقار

أختي المؤمنة:

السكينة خلق من أخلاق القرآن الكريم لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر السّكينة ست مرات، مرة منها في سورة البقرة، واثنتان منها في سورة التّوبة، وثلاث مرات منها في سورة الفتح.

والسّكينة خلق يثمر تثبيت القلب وتسكينه، وإيداعه الجرأة مع الرزانة، والتكلم بوقار المحققين وإيمان الصادقين، ودقة العلماء، وهدوء الحكماء، ولعل هذا هو معنى ما ينسب إلى عمر الفاروق ﷺ من أنه كان يتكلم بما يدل على توافر الحكمة والسكينة في قلبه، فقد روي أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ قال: إن السكينة لتنطقُ على لسان عمر.

وروي عن عبد الله بن عباس أنّه قال: كنّا نتحدّث أنّ السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه.

وروي أن عبد الله بن مسعود قال: ما كنا نبعد أن السّكينة تنطق على لسان عمر. وفي رواية أنّه قال: كنّا أصحابُ محمّدٍ ﷺ لا نشكّ أنّ السّكينة تتكلم على لسان عمر. وأغلب الظن أن مرادهم بالسكينة هنا هو أثرها وثمرتها، وهو الحكمة، وإن كان هناك من فسرها بالوقار والسكون والرحمة.

والسكينة كذلك هدوء في القلب ينزله الله تعالى على عبده عند اضطراب القلب من المخاوف أو الأهوال، فلا يزلزله الانزعاج، بل يثبته الله ويوطده، ويزيد في إيمانه ويقينه، ولذلك نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن الله تعالى جمل رسوله صلوات الله وسلامه عليه بحلية السكينة في مواطن الهول والقلق، كيوم «غار ثور» في الهجرة، ويوم أحد حين فرّ من فر، ويوم حنين إذ اشتد البأس على المؤمنين، ويوم الأحزاب حينما بغى الكفر محاولاً البطش بالإيمان، ويوم الحديبية حينما حاول الكفار أن يتحكّموا في المسلمين... إلخ.

ولعل أسمى درجة للسكينة هي تلك السكينة التي كانت تُثبّتُ قلبَ النّبيِّ ﷺ حين نزول الوحي عليه، ويا له من موقف جليلٍ مهيبٍ.

والسكينة التي تحدث عنها القرآن الكريم بشأن رسوله ﷺ والمؤمنين هي ما يُعمِّر الله به قلوبهم من القوة والرَّوح والنور، وبذلك يذهب الخوف، ويبعد الحزن، ويزول القلق، والله جل جلاله يقول في سورة التوبة: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1] ولا يشترط هنا أن يكون الإنزال إنزالاً مكانياً من أعلى إلى أدنى، بل قد يكون معناه: خَلَقَ وأوجد، على حد قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[2]. فالمراد بالسكينة هنا هو الحالة النفسية الحاصلة بفضل الله وتوفيقه: من السكون، والاستقرار، وزوال الاضطراب والانزعاج، والسكينة كما عرفنا وقار ورزانة وهيبة، فالآية تشير إلى أن الله تباركت آلاؤه قد أفرغ من سماء عزته وقدرته سكينته اللدنيّة على الرسول والمؤمنين، فكانوا كالجبال الرواسي.

ويقول القرآن في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[3].

وكذلك تحدث القرآن عن السكينة في سورة الفتح ثلاث مرات فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[4]. وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾[5]. وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٥) سورة الفتح، الآيتان: ١٨، ١٩.

﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ما يصحب الجاهلية من كبرياءٍ وأنفة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

ومن هذه الآيات القرآنية التي تحدثت عن السّكينة وأهلها نفهم أن لها ثمرات ولأهليها ميزات وخيرات، فالسّكينة هي قرينة النّصر للمؤمنين، ولذلك نصر الله عباده الأولين بهذه السّكينة، وعذب أعداءهم الكافرين، وهي طريق التأييد الإلٰهي لعبده المعتصم بجنود كثيرة مستورة، وهي مفتاح الازدياد في الإيمان، وهي سبب لرضى الله تعالى، وعنوان على طهارة قلوب المزدانين بها، وأهلها جديرون بالثواب والفتح والمغنم، وهم أهل التقوى القائمون بتبعاتها، والله لا يُضيّع أجْرَ من أحسنَ عملاً[2].

البحث العاشر:

خُلُقُ الصبر والمصابرة

أختي المؤمنة:

الصّبر، والتّصبّر: هو تكلف الصبر، والاصطبار زيادة الاحتمال في مجال الصبر، وقد جاء في سورة مريم: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾[3]. وفي سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[4]. وفي سورة القمر: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾[5]. والصّبّار - بتشديد الباء - والصّبور: من صيغ المبالغة في الصّبر وحبس النّفس

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٢) أخلاق القرآن، ج١، ص: ١٠٤-١٠٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٥) سورة القمر، الآية: ٢٧.

ومجاهدتها، والفرق بينهما هو أن الصّبّار الكثير الصّبر، أي: الذي يتكرّر منه الصَّبْرُ ويكثر، وأمّا الصّبور فهو الشديد الصّبر القوي في صبره. وقال الأصفهاني: إن الصّبور هو القادر على الصبر، والصبار هو الذي عنده ضرب من التكلف والمجاهدة في الصبر، وقد جاءت كلمة «الصبّار» في القرآن أكثر من مرة.

والصبر فضيلة تتعدد مجالاتها، فهناك صبر على الطاعة، أي: استمساك بأدائها، وصبر عن المعصية أي: حرص موصول على تجنبها، وصبر في الابتلاء، أي: حسن احتمال له، فلا بد للمؤمن من صبر على أداء الواجب، وصبر على الآثام والخطايا، وصبر يحفظ اللسان عن الخَنَا والفُحْش، وصبر بحرص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب، وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر السوء، وصبر يحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام، وصبر عند الشدائد والنوازل، وصبر في مواطن الجهاد والقتال بالإقدام والثبات وعدم الفرار أو التولي من الزحف، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[1]. فتولية الأدبار ضد الصّبر.

والصّبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل، وقد يُسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره، فالصبر في الحرب يسمى شجاعة، والصبر في النوائب قد يسمى برحابة الصدر، والصبر مع السر قد يسمى بالكتمان، وقد تعرض الإمام الغزالي لكثرة أنواع الصبر وألوانه واختلاف أسمائه باختلاف متعلقاته، فقال: إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان عن احتمال مكروه اختلفت أسامي عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، وإن كان في احتمال الفتى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضاده التذمر.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٥.

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر، وسمي صاحبه كتوماً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، ويضاده الحرص، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشر.

فأكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها، كما قال: «الحج عرفة»[1].

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك، وسمى الكل صبراً، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: في المصيبة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: الفقر ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: المحاربة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2] [3].

البحث الحادي عشر:

خُلُقُ صفاء القلب وسلامته

أختي المؤمنة:

سلامة القلب فضيلة من فضائل الإسلام، وخلق من أخلاق القرآن وجزء من هدي الرسول عليه الصّلاة والسّلام، وسلامة القلب هي صفاؤه ونقاؤه، وصحته وقوته، وطهارته وبراءته، والمؤمن الحق من شأنه أن يكون صاحب قلب سليم. وكثرت عبارات السلف في المراد بالقلب السليم، فقيل: هو الخالص من دغل الشرك والذنوب. وقال ابن عباس: القلب السليم هو الذي يشهد أن لا إله إلا الله، أي: العامر بقصيدة التوحيد. وقال مجاهد: قلب سليم يعني سلم من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب

(١) صحيح الجامع برقم ٣١٧٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) أخلاق القرآن، ج١، ص: ١٩١-١٩٣.

المؤمن، لأن قلب الكافر أو المنافق مريض، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[١].

وقال أبو عثمان النيسابوري: القلب السليم هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة. وقال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. ومن هذه الأقوال نفهم أن سلامة القلب في عرف المفهوم الأخلاقي القرآني تعطي معاني الطهر والصفاء، والإيمان بالله جل جلاله، والاعتقاد فيما شرع الله، والتحرز من الرذائل والعيوب.

وقد أشار القرآن المجيد إلى فضيلة سلامة القلب، فقال في سورة الشعراء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[٢].

أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو كثر، ولا بنوه وإن كثروا، فلا ينفعه الافتداء بملء الأرض ذهباً، ولا ينفعه الافتداء بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله، وإنما يفوز يومئذ من أتى الله بقلب سليم خالص من الشرك، بعيد عن الدنس.

إن يوم القيامة تختلف موازينه عن موازين الدنيا، فلا ينفع المال ولا البنون أحداً، ولكن من أقبل على الله بنفس منزهة عن الشرك والنفاق، وقلب صاف طهور لا إثم فيه ولا دغل - وهو قلب المؤمن - فهو الفائز بفضل الله وثوابه، وكذلك يفوز من أنفق ماله في الخير، ومن كان ولده صالحاً، ولذلك جاء في الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٣].

ويقول القرآن الكريم في سورة الصافات متحدثاً عن نوح وإبراهيم: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) صحيح الجامع برقم ٧٩٣.

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

أي: إن من شيعة نوح وأهل دينه إبراهيم عليه السلام الذي أقبل على ربه بقلب سليم عامر بالتوحيد والخير، نقي من الشرك والإثم، خالص من آفات القلوب وعيوبها، ومجرد وصف إبراهيم بهذا الوصف وهو سلامة القلب فيه تشريف لهذه الفضيلة، وتنوه بشأنها أي تنوه، لأن إبراهيم هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء عليهم السلام.

ونحن نجد وصف سلامة القلب منسوباً إلى إبراهيم في القرآن مرتين، هذه المرة في سورة الصافات، وتلك المرة السابقة عليها في سورة الشعراء، وفي الشعراء يمضي النص هكذا على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم، فلا يوجد في يوم الحساب من قيمة إلا قيمة الإخلاص الذي يجعل القلب كله لله، ويجعله متحرراً من كل شائبة وغرض ومرض، صافياً من الشهوات والانحرافات، خالياً من التعلق بغير الله، فهذه هي سلامته التي تجعل له وزناً وقيمة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائفة الباطلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهي لا تزن شيئاً في ميزان الله العادل.

والحديث عن سلامة القلب يدعونا إلى الحديث عن القلب. إن القلب في عرف رجال التربية والأخلاق لطيفة ربانية روحية، هي حقيقة الإنسان، ولها علاقة بالقلب الحسي المودع في الجانب الأيسر من الصدر، والقلب - كما يقول أبو حامد الغزالي - هو العالم بالله، المتقرب إلى الله، العامل لله، الساعي إلى الله، المكاشف بما عند الله، والجوارح أتباع وخدم، وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للمملوك، أو الراعي للرعية.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٨٧-٨٩.

والقلب هو المقبول عند الله إذا سلم لله، ولم يكن محجوباً عن الله، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه صاحبه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه، وهو المطيع لله في الحقيقة، والذي ينتشر على الجوارح من العبادة أنواره، وهو الذي إذا عرفه الإنسان عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه ﷻ.

وإذا سيطر الشيطان على هذا القلب أفسده وأضله، وأفقده سلامته وطهارته، وللشيطان مداخله الكثيرة إلى هذا القلب لإفساده، وقد توسع أبو حامد كثيراً في بيان مداخل الشيطان على قلب الإنسان، والآفات التي تفقده سلامته، ومنها: الغضب والشهوة، والحسد والحرص، والإسراف في الطعام، وحب التزين، والعجلة وترك التثبت في الأمور، والمال وإغراؤه، والبخل وخوف الفقر، والتعصب للمذاهب والآراء، وسوء الظن بالمسلمين، والمعاصي والآثام التي تسبب كدورة على وجه القلب تمنع صفاءه وجلاءه...

ومثل هذا القلب السليم لا يروج عنده شيء من مكائد الشيطان، بل يعرض عن الشيطان كلما حاول التغرير به، ويصبح القلب عامراً بالفضائل، وهو القلب المطمئن المراد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(١) (٢).

البحث الثاني عشر:

خُلُقُ الضدق والتّصديق

أختي المؤمنة:

إذا كان خلق رسول الله محمد عليه الصّلاة والسّلام هو التطبيق العملي لآداب القرآن، كما أخبرت السيدة عائشة ﵂، وإذا كان الحق جل جلاله يقول

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) أخلاق القرآن، ج٤، ص: ٩١-٩٧.

عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] فمن الطبيعي أن يكون سيدنا رسول الله ﷺ قدوة وأسوة ومثلاً في الصدق، وأن يظهر خلق الصدق فيه منذ نشأته تطبيقاً لقول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢]. ولذلك نعته قومه قبل بعثته بنعتِ الصّادقِ الأمينِ. ولقد قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها عند بدء الرسالة: إنّك لتصدقُ الحديثَ. وقال له قومه: ما جَرّبْنَا عليكَ كَذِباً.

وحينما تواطأ المشركون المعاندون على أن يتهموا رسول الله عليه الصّلاة والسّلام بالسحر عارضهم أحدهم، وكان شديد العداوة للرسول، وهو النضر بن الحارث، وقال لهم: قد كان محمّدٌ فيكم غلاماً حَدَثاً، فكان أرضاكم فيكم، وكان أصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتّى إذا رأيتُم في صدغيه الشّيبَ وجاءَكُم بما جاءَكُم بِهِ قُلْتُم: ساحرٌ، والله ما هو بساحرٍ.

وهكذا شهد له أعداؤه، كما شهد له أولياؤه بالصّدق، ويا لها من شهادة، فالصدق من أعظم الأخلاق الكريمة، والقرآن قد قرر أن الرسول ﷺ على خلق عظيم، والقرآن ينوه بالصدق ويرفع شأنه، فلا عجب في أن يتمسك الرسول بالصدق في كل أحواله، حتى في مزاحه، لأن خلقه القرآن، كما قالت الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليهما.

ويقرر القرآن المجيد بعد هذا أن الصّدق هو صفة الأخيار من عباد الله الصّالحين المصلحين، الطائعين المستقيمين، فيقول في سورة البقرة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٣]. ويقول في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٤]. وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٥]. وقال في سورة الحشر: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ

(١) سورة القلم، الآية: ٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٣.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[١]. وقال في سورة آل عمران يمدح المؤمنين: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[٢].

وإذا قال الإنسان الصدق سُمِّيَ صادقاً، وما يزال الإنسانُ يصدقُ ثم يصدقُ ثم يصدقُ حتى يصيرَ صدِّيقاً، والصِّدِّيق هو الملازم للصدق لا يتركه إلى غيره، وقد وردتْ في تعريف الصّديق عدة أقوال. فقيل: هو من كثر منه الصِّدقُ، وقيل: هو من لا يكذب أبداً، وقيل: هو من لا يتأتّى منه الكذبُ لتعوّدِهِ الصدقَ، وقيل: هو من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقَهُ بفعلِهِ، وإذا كان المفسرون قد قالوا: إنّ الصديقين قوم دون الأنبياء في الفضيلة فذلك لا يمنع أن يتصف الأنبياء والرسل بصفة الصِّدِّيقية الملائمة لعصمتهم ومنزلتهم الزائدة عن صديقية غيرهم ممن ليسوا برسل ولا أنبياء، ولقد وصف القرآن الكريم خليلَ الرحمن وأبا الأنبياء إبراهيم بهذه الصفة، فقال في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[٣]. ووصف إدريس بمثل هذا فقال في سورة مريم أيضاً: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[٤]. وجاء في القرآن وصف يوسف بالصديقية في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾[٥]. وجاء وصف مريم بهذه الصّفة في سورة المائدة: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[٦].

وجاء وصف الأخيار من عباد الله بوصف الصِّدِّيقية، ففي سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٧]. وفي سورة الحديد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[٨].

وهذا كله يدلنا على ما أعطى القرآن الكريم فضيلة الصّدق من منزلةٍ ومكانة[٩].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤١.
(٤) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٤٦.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٧) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٨) سورة الحديد، الآية: ١٩.
(٩) أخلاق القرآن، ج١، ص ٤٣-٤٥.

البحث الثالث عشر:

خُلُقُ الصلاح والإصلاح

أختي المؤمنة:

لقد تكررت مادة الصلاح والإصلاح في القرآن المجيد أكثر من مائة وسبعين مرة، ونستطيع أن نلحظ من مراجعة هذه المواضع أن الترتيب الطبيعي أو الغالب فيها أن الإيمان مدخل إلى الصلاح، وأن الإصلاح يكون ثمرة أو نتيجة للصلاح. ومن هنا ينبغي أن نلاحظ هذا الاقتران المتكرر الغالب بين ذكر الإيمان وذكر العمل الصالح، وقد تكرر قول القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أكثر من خمسين مرة.

وليس هناك من ضرورة تلجئ إلى إيراد كل هذه المواطن، وحسبنا هنا نماذج منها، ففي سورة البقرة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

وفي سورة المائدة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٣).

وفي سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٩.

وفي سورة الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(١).

والله تبارك وتعالى يمنّ على الأخيار من عباده، فيصلح لهم أعمالهم، وفي هذا تشريف للصلاح والإصلاح، يقول القرآن في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٢).

والرّسل - عليهم الصّلاة والسّلام، وهم النّماذج العليا من البشر - قد أمرهم أن يعملوا أعمالاً صالحةً، وأنْ يكونُوا أئمةً في هذا المجال، بعد أن صنعهم الله على عينه، فجعلهم أئمة في الصّلاح، يقول التنزيل في سورة المؤمنون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٣).

يقول بعض أهل التفسير: يأمر الله عباده المرسلين، عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

وفي سنّة الرسول عليه الصّلاة والسّلام يقول: «**بذلك أمرت الرسل: أن لا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً**».

وقد ذكر القرآن المجيد طائفة من الأنبياء والمرسلين، وعطر كلاً منهم بأنه موصوف بصفة الصلاح، ففي سورة البقرة يقول عن إبراهيم: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٤).

وهذا شعيب ينادي - كما في سورة هود - بأنه لا يريد إلا الإصلاح الناشئ

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

عن الصلاح: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١).

أي: لا أقصد إلا الإصلاح العام لكم، بالتزامي الدّعوة إلى ما أمر الله به، والنهي عما نهى عنه، فلا أريد نفعاً ذاتياً، ولا مأرباً شخصياً، ولا يتحقق توفيقي لما أرتجي إلا بفضل الله وقوته.

وللإصلاح مواطن، وكلما كان الموطن عاماً واسعاً شاملاً الكثير من عباد الله كان أنفع وأمتع وأروع، ولذلك يقول التنزيل في سورة الأنفال: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾(٢). أي: الأحوال الواقعة بينكم معشر المسلمين، فاتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تخاصموا ولا تستبوا.

ويقول القشيري: أصلحوا ذات بينكم بالانسلاخ عن شح النفس، وإيثار حق الغير على ما لكم من النصيب والحظ، وتنقية القلوب من خفايا الحسد والحقد.

والإصلاح كذلك واجب بين الجماعتين اللتين قد تقتتلن مع أن كلاً منهما تنتسب إلى الإسلام، ففي سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾(٣).

ويقول الحق جل جلاله في سورة النساء: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٤).

فالإصلاحُ بينَ النّاس مجال فسيح واسع لجهود الصالحين المصلحين من

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١.
(٣) سورة الحجرات، الآيتان: ٩، ١٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٤.

عباد الله سبحانه، ولقد عنى رسول الله ﷺ بالإصلاح حتى روى أنس عن النّبيّ صلوات الله وسلامه عليه قال لأبي أيوب: «**ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسولُه؟**» قال: بلى يا رسولَ الله. قال: «**تَسْعَى في إصلاحٍ بينَ النّاس إذا تفَاسَدُوا، وتُقَارِبُ بينَهُمْ إذا تباعدوا**»(١).

كما ورد قولُ الرسولِ ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصّلاة والصّيام والصّدقة؟**» قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة**»(٢).

ومن مواطن الصلاح والإصلاح المهمة ما يشير إليه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾(٣).

وإصلاح أحوالهم بتأديبهم قد يكون أهم من الإصلاح المعلق بأموالهم.

وثمة ملاحظة نشاهدها في الأسلوب القرآني، فنحن نجده في كثير من المواطن يجمع بين ذكر التوبة وذكر الإصلاح، ويأتي ذكر التوبة أولاً، وكأن هذه إشارة - والله أعلم بمراده - إلى أن الإنسان الصالح يبدأ أولاً بالتوبة للتطهر والتنظف، وهذه مرحلة نستطيع أن نسميها مرحلة «التخلية» أي: التخلص من الرواسب والآثام، وتأتي مرحلة نستطيع أن نسميها مرحلة «التحلية» التي يحلي الإنسان الفاضل فيها نفسه بالمكارم والمحامد، وفي طليعتها الإسهام في إصلاح الناس، فلنستعرض بعض الشواهد على ذلك:

١ - في سورة الأنعام:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ

(١) مجمع الزوائد، ج ٨/ ٨٠، وقال الهيثمي: فيه صاحب أبي أمامة لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) حديث صحيح، صحيح الجامع برقم٢٥٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

﴿ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

٢ - في سورة المائدة:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

٣ - في سورة النساء:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

٤ - في سورة النحل:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

٥ - في سورة النور:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

٦ - في سورة البقرة:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٦)... إلخ.

وفي هذه الآية الأخيرة يقول القرطبي: استثنى الله تعالى التّائبين الصّالحين المصلحين لأعمالهم وأقوالهم، المنيبين لتوبتهم، ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل: قد تبت، حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول: فإن كان مرتداً رجع إلى الإسلام مظهراً شرائعه، وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٦.
(٤) سورة النحل، الآية: ١١٩.
(٥) سورة النور، الآية: ٥.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٦٠.

وقد ذكر القرآن كثيراً من أنواع الجزاء والثواب على العمل الصالح، مع ما يقترن به من توبة وتقوى واستقامة، فهناك تكفير السيئات، ففي سورة الإسراء:

﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾(١).

وفي سورة التغابن:

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

وهناك مضاعفة الثّواب، ففي سورة سبأ:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾(٣).

وهناك وراثة الأرض والسيادة فيها، ففي سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾(٤).

وهناك ولاية الله تعالى، وأنعم بها من ولاية، ففي سورة الأعراف:

﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٥).

وهناك الحياة الطيبة والأجر الحسن، ففي سورة النحل:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٦).

ونفهم من حديث القرآن الكريم عن العمل الصالح والمغفرة أنّ المعاصي لا تحبط الطّاعات، فالله تعالى يقول في سورة المائدة:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٧).

والمغفرةُ - كما في لطائف الإشارات - لا تكون إلّا للذنب، فوصفهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٥.
(٢) سورة التغابن، الآية: ٩.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.
(٦) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٩.

بالأعمالِ الصّالحاتِ، ثم وعدهم المغفرة، لنعلم أنّ العبد تكون له أعمال صالحة، وإنْ كانت له ذنوب تحتاج إلى الغفران، بخلاف ما قيل إن المعاصي تحبط الطاعات. وقيل إن المعنى أنّ العبد - وإن كانت له أعمال صالحة - فإنّه يحتاج إلى عفو الله ورضوانِه وغفرانِه، ولولا ذلك لهلك.

ونفهم كذلك من حديث القرآن الحكيم عن «الإصلاح» أنه يبعد أهله عن الهلاك، يقول الحق جل جلاله في سورة هود:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1] [2].

البحث الرابع عشر:

خُلُقُ لين الجانب وخفض الجناح

أختي المؤمنة:

الجَنَاحُ يُطلقُ في حقيقته على ما يخفق به الطائر عند الطيران، وقد يطلق الجناح على يد الإنسان، أو عضده، أو جانبه، كما يطلق الجناح على الناحية. وخفض فلان جناحه لفلان، أي: ألان له جانبه وتواضع معه وترفق في معاملته، وكأن الإنسان يهبط بنفسه كما يفعل الطائر عند هبوطه، وذلك ليرفع الإنسان غيره في المعاملة، فكأن خفض الجناح كناية عن اللين والرفق، ومن هنا يأتي المعنى الأخلاقي لهذا التعبير: «خفض الجناح».

ولذلك يتعرّض جارُ الله الزمخشري لبيان المعنى في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] فيقول: إن الطّائر إذا أراد

(١) سورة هود، الآية: ١١٧.
(٢) أخلاق القرآن، ج٤، ص: ٢٠٩-٢٢٠.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

أن يهبط من أعلى إلى أدنى كسرَ جناحَهُ وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ونشره، فجعل القرآن الكريم خفض جناحه عند النزول أو الهبوط مثلاً في التواضع ولين الجانب، ومنه قول بعضهم مادحاً:

وأنتَ الشهيرُ بخفض الجناحِ فلا تَكُ في رفعِهِ أجْدَلا

وهو ينهى ممدوحَهُ هنا عن التكبّر بعد التواضع، والأجدل الصّقر.

وهذا المعنى الأخلاقي لخفض الجناح يذكُرنا بالحديث: «**إنّ الملائكةَ لتضَعُ أجنحَتَها لطالبِ العِلْمِ رِضىً بما يَصْنَعُ**»(١). أي: تتواضع معه تعظيماً لحقّه، أو تضعها وطاءً لهُ إذا مشَى، وهذا كناية عن التّوقير والتكريم.

ولقد ذكر القرآن المجيد فضيلةَ «خفض الجناح» في ثلاثة مواطن: الأول في سورة الحجر حيث يقول:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

والموطن الثاني في سورة الإسراء حيث يقول:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾(٣).

والموطن الثالث في سورة الشعراء حيث يقول:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(٤).

ونلاحظ بادئ ذي بدء أن الخطاب في موطنين من هذه المواطن الثلاثة يتجه

---

(١) صحيح سنن الترمذي برقم ٢٨٠١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٢١٤-٢١٦.

إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وجاء الخطاب في الموطنين بأسلوب الأمر والطلب. وفي هذا ما فيه من إشارة إلى علو مكانة هذه الفضيلة الأخلاقية القرآنية، ومن تشريف لها عن طريقة مطالبة الرسول بها أكثر من مرة ليكون خير قدوة للناس في الاستمساك بهذا الخلق الكريم.

كما نلاحظ أن المواطن الثلاثة كلها قد جاء فيها الحديث القرآني عن خفض الجناح بصيغة الأمر والطلب، وذلك دليل على مدى العناية التي يعطيها كتاب الله تبارك وتعالى لهذه الفضيلة.

وقوله في سورة الحجر: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]. معناه: ألِنْ لهم جانبك؛ ليتحقق أمامهم فيك قول ربك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[4].

ويقول الزمخشري في تفسير الآية: وتواضع لمن معك من فقراء المسلمين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء، وإنما ذكر الزمخشري الفقراء والضعفاء هنا لأن الآية بأكملها تقول: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[5]. فلما نهاه عن التطلّع إلى ما في أيدي الأغنياء من متع الحياة وزينتها، والحزن عليهم لكفرهم أو تجبّرهم، طالبه بلين المعاملة مع المؤمنين العابدين حتى ولو كانوا فقراء أو ضعفاء، وإذا كان خفض الجناح في هذا الموطن عاماً شاملاً كل المؤمنين، فإن خفض الجناح في الموطن الثاني جاء الأمر به خاصاً متعلقاً

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

بشخصين عزيزين غاليين، يعلو حقهما على حقوق سواهما، ذلكما هما الأم والأب اللذان يقول القرآن للولد عنهما:

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾(١).

أي: تواضع لهما فوق طاعتهما وحفظ حقوقهما ورعاية حرمتها، فاخفض لهما جناح الذل بلين المنطق، وجميل اللقاء، ولطف المعاملة، وحسن المداراة، والمبادرة إلى الخدمة، والصبر على أمرهما، وترك التبرم بمطالبهما.

ويعلق جار الله على كلمة: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فيقول: فيه وجهان: أحدهما أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك كما قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢) فأضافه إلى الذل، كما أضيف حاتم الطائي إلى الجود، على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل الخاضع.

والثاني: أن تجعل لذلك جناحاً خفيضاً مبالغة في التذلل والتواضع لهما على سبيل الاستعارة، كما جعل لبيد الشاعر لريح الشمال يداً، وللقرة - وهي شدة البرد - زماماً، في قوله:

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذْ أصبحت بيد الشمال زمامها

والنيسابوري في تفسيره يذكر أنّ الطّائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه للتربية والحضانة، خفض له جناحيه فلذلك صار خفض الجناح كناية عن حسن التّدبير، وهذا المعنى مناسب لحسن المعاملة التي نطلبها من الولد لوالديه، إذ لا بدّ من بذله الجهد حتى تأتي معاملته على أحسن وجهٍ ممكن.

ويأتي الموطن الثالث وهو قول الله جل جلاله في سورة الشعراء: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣) وهذا أمر باللين العام، والتواضع الذي يشمل كل الأتباع المؤمنين، حيث يأمر الله نبيه بأن يلين معهم، ويحلم عليهم، ويترفق

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

بهم، ويجسّم القرآن ذلك في صورة حسية، هي صور الجناح المخفوض من الطائر حينما يهم بالهبوط حيث الهدوء والسكون والاطمئنان.

ويفسر القشيري في «لطائف الإشارات» هذه الآية بقوله: ألِنْ جانبك لهم، وقاربهم في الصحبة، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدو منهم من التقصير، واحتمل منهم سوء الأحوال، وعاشرهم بجميل الأخلاق، وتحمل عنهم كلهم، وارحمهم كلهم، فإن مرضوا فعدهم، وإن حرموك فأعطهم، وإن ظلموك فتجاوز عنهم، وإن قصروا في حقك فاعف عنهم، واشفع لهم أو استغفر لهم.

ولنلاحظ هنا أسلوب النظم القرآني، ولنر كيف سار أن الآيات هنا تقول: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾[1].

انظر كيف بدأت الآيات بذكر الإنذار، وفيه شدة وصلابة وصرامة، ثم ذكرت خفض الجناح، وفيه رفق ولين وتواضع، فإن لم ينفع معهم الإنذار الممزوج باللين، فدعهم وشأنهم، واتجه إلى ربك القوي الغالب الرحمن الرحيم، فأنت في هدايته ورعايته.

وقد يقال: ولِمَ قال القرآن: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] والمتبعون للرسول ﷺ هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول؟ ويجيب الزمخشري على ذلك بقوله: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين، لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان:

صنف صدّق واتّبعَ رسولَ الله فيما جاء به، وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح.

والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم. يعني: أنذر قومك. فإن

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤-٢١٧.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، و: إن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم ومن الشرك بالله وغيره، وتوكل على الله يكفك شرَّ من يعصيك منهم ومن غيرهم[١].

البحث الخامس عشر:

خُلُقُ كظم الغيظ وكفّ الغضب

أختي المؤمنة:

و«الغيظ» صفة تدل على تغير في المخلوق عند احتداده يتحرك لها، وفي الحديث جاءت كلمة: «غيظ جارتها» لأنها ترى من حسنها ما يغيظها ويهيج حسدها. ولقد قال الأستاذ الإمام محمد عبده عن الغيظ: الغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال، أو المعنوية كالشرف، فيزعجها إلى التشفي والانتقام، ومن أجاب داعي الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكتفي بالحق، بل يتجاوزه إلى البغي، فلذلك كان من التقوى كظمه.

وقد وردت مادة «الغيظ» في آيات من القرآن الكريم، ففي سورة آل عمران: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢]. وفي سورة التوبة: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[٣]. وفيها أيضاً: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾[٤]. وفي سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾[٥].

---

(١) أخلاق القرآن، ج٣، ص٢٨-٣٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

و«كظم الغيظ» هو تجرعه واحتمال سببِهِ والصّبر عليه، وفي الحديث: «إذا تَثَاءَبَ أحدُكم في الصّلاةِ فليكظِمْ ما اسْتَطَاعَ»[1]. أي: فليحبسه ما أمكنه، وقد قال المفسّرون في قوله تعالى عن المتّقين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[2] إنّهم الذين إذا ثارَ بهم الغيظُ - وهو أشد الغضب - كظمُوه وكتمُوه، ولم يستجيبوا لداعيه، ولا يعلنون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله ﷻ.

ولشيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري عبارة في التعليق على كلمة ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يقول فيها ما نصه: قوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يعني: والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه: كظم فلان غيظه إذا تجرعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وأصل ذلك من كظم القربة، يقال منه: كظمت القربة إذا ملأتها ماء. وفلان كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً غماً وحزناً، ومنه قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3] يعني: ممتلئ من الحزن، ومنه قيل لمجاري المياه: الكظائم، لامتلائها بالماء، ومنه قيل: أخذت بكظمه، يعني: بمجاري نفسه، والغيظ مصدر من قول القائل: غاظني فلان فهو يغيظني غيظاً، وذلك إذا أحفظه وأغضبه. اهـ.

وكظم الغيظ يحتاج إلى إرادة صُلْبة، وعزيمة قوية، وشخصية تتحكم في عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها، فلا يستبد بها الغضب، ولا يسيطر عليها الهوى الجامح، فيدفعها إلى الانتقام والتشفي، أو إلى ارتكاب ما لا يحسن بالرجل الحكيم الوقور.

ولذلك قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه: «ليسَ الشّديدُ

(١) صحيح مسلم برقم٢٩٩٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

بالصُّرْعةِ؛ إنّما الشّديدُ الذي يملِكُ نَفْسَهُ عندَ الغضبِ»[١]. وفي رواية أنه قال: «ما تعدون الصّرعة فيكم؟» قالُوا: الذي لا يصرعُهُ الرّجالُ. قال: «ليسَ بذلك، ولكنّه الذي يملِكُ نَفْسَهُ عندَ الغَضَبِ»[٢].

ولقد عنيت السنة المطهرة عناية واضحة بفضيلة كظم الغيظ، فجاءت فيها مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تُنوّه بمكانة هذا الخلق الإسلامي القرآن، فجاء في الحديث: «مَنْ كَظَمَ غيظاً وهو قادرٌ على أن ينفذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور العين شاء». وجاء فيه: «من كظم غيظاً - ولو شاء أن يمضيه لأمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً»[٣].

وتشير السنة إلى ما تتطلبه فضيلة كظم الغيظ من جهد ومعاناة، ومغالبة للهوى والنفس، فيقول الحديث الشريف: «ما جرعَ عبدٌ جرعةً أعظمَ أجراً من جرعةِ غيظٍ كظمَها ابتغاءَ وَجْهِ الله تعالى»[٤].

فالتعبير بكلمة «جرع» تفيد معنى المعاناة والمعالجة وحمل النفس على الشيء المتعب الذي يعقب خيراً، كما يتجرّع المريض الدواءَ المُرَّ ليورثه الشفاء والعافية. وهذا هو الأصفهاني يقول في كتابه «مفردات القرآن» عن مادة جرع: جرع الماء يجرع، وقيل: جرع وتجرعه إذا تكلف جرعه، قال ﷻ: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[٥].

وكأن احتياج كظم الغيظ إلى الجهد والمشقة والمقاومة، هو بعض السر في أن الله تبارك وتعالى قد جعل هذه الفضيلة من أخلاق أهل التقوى، كما جاء في التنزيل المجيد: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[٦].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٦٠٩.
(٢) صحيح مسلم برقم ٢٦٠٨.
(٣) صحيح الجامع برقم ٦٥١٨، وقال: حسن.
(٤) قاله العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، ج ٣/ ١٧٥، أخرجه ابن ماجه.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.
(٦) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣-١٣٤.

ولعل هذا هو السبب في أن السيدة عائشة رضي الله عنها كظمت غيظها، حينما غاظها بعض من يخدمها وقالت: لله دَرُّ التَّقْوى ما تركتْ لذي غيظٍ شفاءً.

والغضب هو العامل المفسد لكظم الغيظ، فمن استجاب لداعي الغضب لم يستطع أن يكظم غيظه، ولذلك يروى أن رجلاً رحل إلى رسول الله ﷺ وقال له: علمني شيئاً، ولا تُكْثِرْ عليَّ لعلي أعيه. فقال له: «لا تغضبْ» فكرر الرجل قوله مراراً، وفي كل مرة يقول له النّبيّ ﷺ: «لا تَغْضَبْ»[1].

وفي بعض الروايات أن هذا الرجل يسمى «جارية بن قدامة» وأنّه قال للنّبيّ ﷺ: أوصني ولا تُكْثِرْ عليّ في الوصية لعلّي أحفظُها، فقال: «لا تَغْضَبْ» فأعادَ الرجلُ السؤالَ فأعادَ النّبيُّ ﷺ الجوابَ.

والعلماء يقولون: إنّ الغضب هو فوران دَمِ القلب لإرادة الانتقام، وهذا شيء كأن الإنسان مجبول عليه، ولا يستطيع التخلص منه بالكلية، ولكن المأمول من الرجل صاحب الأخلاق الفاضلة أن يتجنب أولاً أسباب الغضب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن لا يطيع الشيطان فيما يوسوس له من الاستجابة لداعي الغضب، فلا يتهور ولا يتجبر ولا يندفع، وهذا خلق من أخلاق الأنبياء، لأن الحلم شيمة من شيمهم الأساسية، والحليم لا يرتضي لنفسه التهور أو الاندفاع عند ثوران الغضب، ولقد قال الله تعالى عن نبيه يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[2]. وقال عكرمة في تفسير الحصور هنا: إنّه السّيّد الذي لا يغلبه الغضبُ[3].

(١) صحيح البخاري برقم ٦١١٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.
(٣) أخلاق القرآن، ج١، ص٦٥-٦٨.

البحث السادس عشر:

خُلُق العفو والإحسان

أختي المؤمنة:

العفو خلق من أخلاق القرآن التي كرر ذكرها، ورفع قدرها، ولعل ما يبين هذا القدر الرفيع للعفو أن القرآن المجيد جعله صفة من صفات الله ﷻ وأشار إلى ذلك في طائفة من الآيات، ففي سورة البقرة يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١). وفيها أيضاً يقول: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾(٢).

وفي سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). وفيها أيضاً: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٤).

وفي سورة النساء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾(٥). وفي سورة التوبة: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾(٦). وفيها أيضاً: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾(٧).

وفي سورة الشورى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾(٨).

وفيها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٩). وفيها: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكن ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾(١٠).. إلخ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ٩٩.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٦٦.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٣.
(٨) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٩) سورة الشورى، الآية: ٢٥.
(١٠) سورة الشورى، الآية: ٣٤.

وهكذا نجد أن كتاب الله تبارك وتعالى قد نسب صفة العفو إلى رب العزة والجلال أكثر من عشر مرات، ونرى أن الله تعالى يعفو وفي الوقت نفسه يهدد بالمؤاخذة من يعود أو يُصِرّ، وهو يعفو عن طائفة تستحق العفو، ويعاقب من لا يستحق العفو، وهو يحث على الاتجاه إلى الأسباب التي تجعل الإنسان مستحقاً لعفو ربه، ونجد أكثر من هذا وهو أن القرآن يصف الله - ﷻ - بأنه العَفُوُّ في مواطن، فيقول في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(١). وفيها أيضاً: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(٢).

وفي سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٣).

وفي سورة المجادلة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٤).

وما دام العفو صفة من صفات الله التي تؤكدها آيات القرآن، فإنّه ممّا يزكّي الإنسان، ويسمو بقدره عند الله وعند النّاس أن يتخلّق بهذا الخلق الكريم النبيل، ولذلك دعا القرآن إلى العفو وحثَّ عليه، ونوّه به في أساليب مختلفة، فتراه مثلاً في سورة البقرة يقول: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٥) فيذكّر بأن العفو يكون معواناً على تحقيق التقوى عند الإنسان، وعلى تجنب الحيف والظلم.

ويقول في سورة الشورى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٦).

فليس هناك مانع من مقابلة السيئة بجزائها، ومواجهة التطاول بمثله، ولكن العفو المؤدي إلى الإصلاح والخير أجمل وأكمل، وثواب هذا العفو النبيل لا يضيع عند الله الذي يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الحج، الآية: ٦٠.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٧) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

ويقول في سورة التغابن: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

ويقول في سورة النساء: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[٢].

وهذا تأكيد للحث على التجمل بالعفو، وتذكير بأن ثوابه إذا أحسن صاحبه التحلي به - ولم يخرج فيه عن مواطنه - لا يضيع عند الله ﷻ، والقرآن الكريم يحرِّض النّاس على الترقي في درجات الصفح والعفو والغفران والتسامح مع الناس فيقول في سورة آل عمران:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[٣].

وكظم الغيظ هو كتم الغضب وعدم العمل بمقتضاه، والعفو هو ترك العقوبة، والإحسان هو التفضل بالخير[٤].

البحث السابع عشر:

خُلُقُ الصفح والعفو

أختي المؤمنة:

الصّفح خلقٌ من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من صفة الرسول عليه الصّلاة والسّلام، والغالب على استعمال القرآن

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣-١٣٤.
(٤) أخلاق القرآن، ج١، ص٣٤-٣٦.

للصفح هو معنى الإعراض عن الذنب، والصلة بين المعنى اللغوي للصفح والمعنى الأخلاقي هو أن قولهم: صفحت عنه معناه أوليته مني صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه، أو لقيت صفحه متجافياً عنه، أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها، من قولك: تصفحت الكتاب.

والصفح يذكرنا بالعفو، والكثير من الناس يظنون العفو والصفح شيئاً واحداً، حتى إن الطبرسي في «مجمع البيان» يقول: الصفح والعفو والتجاوز بمعنى. ولقد سبق عن خلق العفو فيما تقدّم في البحث السّابق من أنّ الصفح غير العفو، لأنّ الصّفح أبلغ من العفو وأعلى منه درجةً، فقد يعفو الإنسانُ ولا يصفح، ولذلك جاء في «مفردات القرآن»: الصّفحُ أبلغُ من العفو، ولذلك وفي القرآن الكريم: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾[1]. ويقول القرطبي: العفو ترك المؤاخذة بالذّنب، والصّفح إزالةُ أثرِه من النّفْس. وفي «تفسير المنار» العفو ترك العقاب على الذنب، والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.

ومن شرف فضيلة الصفح أن الله تبارك وتعالى أمر بها نبيه محمداً ﷺ، فقال له في سورة الزخرف: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فقد أمره ربه بأن يصفح عنهم، وفي ضمن ذلك منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب، بل يرجو لهم الهداية والرحمة، وأمره بأن يقول لهم: سلام.

يقول ابن كثير في الآية: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعدَ ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.

ويقول الله تعالى لرسوله عليه الصّلاة والسّلام في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٩.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(١).

والصّفح الجميل هو أبلغ ألوان العفو، وهنا أمر للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بأن يخفف على نفسه كفر من كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٢).

وفي القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

أي: لقد تمنّى اليهود لو استطاعوا أن يجعلوكم كفاراً بعد ن عرفتم الإيمان، وذلك بسبب حسدهم لكم، ومن تلقاء أنفسهم، إذ لم يأمرهم الله بذلك، ولم يجدوه في كتاب من عند الله، وقد ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم الحق، وهو رسول الله محمد ﷺ، والقرآن الذي جاء به من عند الله، فاعفوا عنهم وأعرضوا حتى يأتي الله بالنصر، إن الله على كل شيء قدير.

ويقول الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

والمعنى: أنهم بسبب نقضهم العهد والميثاق لعنهم الله وأبعدهم عن رحمته، وجعل قلوبهم قاسية صلبة، لا تعي خيراً ولا تفعله، وهم يبدلون الكلام ويحرفون معناه، ونسوا عهدهم الذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد ﷺ، وأنت يا رسولَ الله لا تزال تطلع على خيانة منهم وفجور، إلا قليلاً منهم لم يخونوا، فاعف عنهم واصفح ما دام بينك وبينهم عهد وهم أهل ذمة.

ويقول ابن كثير هنا: وهذا هو عين النّصر والظّفَر. كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم جمع

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٣.

تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١) يعني به الصفح عمن أساء إليك.

ويقول الله عز شأنه في سورة التغابن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

قيل: إن الآية الكريمة نزلت في بعض المسلمين الذين كانوا إذا أرادوا الخروج للجهاد بكى أولاده وأهله وقالوا له: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم. وقيل: نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النّبيّ ﷺ في المدينة، فأبى أولادهم وزوجاتهم، فلما أتوا النبي رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا بمعاقبة أولادهم وأهلهم، فأنزل الله قوله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويقول الله جلَّ وعَلاَ في سورة النور: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

جاء في تفسير مفاتيح الغيب للرازي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق حيث حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة، وهو ابن خالة أبي بكر، وقد كان يتيماً في حجره، وكان ينفق عليه وعلى قرابته، فلما جاءت قصة الإفك قال لهم أبو بكر: قوموا فلستم مني ولست منكم، ولا يدخلن علي أحد منكم.

فقال مسطح: أنشدك الله والإسلام، وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا إلى أحد، فما كان لنا في أول الأمر من ذنب.

فقال لمسطح: إن لم تتكلم فقد ضحكت.

فقال: قد كان ذلك تعجباً من قول حسان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٤.
(٣) سورة النور، الآية: ٢٢.

فلم يقبل أبو بكر عذره، وقال: انطلقوا أيها القوم، فإن الله لم يجعل لكم عذراً ولا فرجاً.

فخرجوا لا يدرون إلى أين يذهبون وأين يتوجهون من الأرض، فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي بكر يخبره بأن الله تعالى قد أنزل عليه آيات ينهاه فيها عن إخراجهم، فكبر أبو بكر وفرح، وقرأ الرسول عليه ما نزل، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. قال أبو بكر: بلى يا رب إني أحب أن يغفر لي، وقد تجاوزت عما كان.

وذهب أبو بكر إلى بيته، وأرسل إلى مسطح وأصحابه، وقال: قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلت بكم ما فعلت إذا سخط الله عليكم، أما إذا عفا عنكم فمرحباً بكم. وجعل لمسطح ضعف ما كان له قبل ذلك.

ونفهم من الآية الكريمة أن أهل الفضل في الدين والخلق لا يقصرون في الإحسان إلى المسلمين فهم أهل سماحة وصفح، ونرى أن الله تبارك وتعالى حينما أمر أبا بكر بالإعطاء لقبه بأولي الفضل والسعة، كأنه سبحانه يقول له: أنت أفضل من أن تقابل إساءته بمثلها، وأنت أوسع قلباً من أن تقيم للدنيا وزناً، فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برّك عنه بسبب ما صدر منه من الإساءة، وهذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين.

ويعلق الرازي على قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾[1] فيقول: إنّ العفو قرينة التقوى، وكل من كان أقوى من العفو كان أقوى من التقوى، ومن كان كذلك كان أفضل لقول الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2].

والعفو والتّقوى متلازمان وقد اجتمعَا في أبي بكر، أمّا التّقوى فلقوله سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾[3]. وأمّا العفو فلقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾. فنال الشرفين رضي الله تعالى عنه[4].

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) سورة الليل، الآية: ١٧.
(٤) أخلاق القرآن، ج٤، ص٥٢-٥٩.

البحث الثامن عشر:

السخاء والجود

أختي المؤمنة:

اتصفي بهذين الخُلُقين الكريمين، فقد أكّدَ عليهما رسول الله ﷺ حيث رغب فيهما كثيراً.

قالَ رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يومٍ يُصبحُ العبادُ فيه إلّا ومَلَكَانِ ينزِلانِ فيقول أحدُهما: اللَّهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخَرُ: اللَّهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»(١).

ويقول ﷺ: «إنّ ملكاً بباب مِنْ أبوابِ الجنّةِ يقول: من يُقرضُ اليومَ يُجْزَ غداً، ومَلَكٌ ببابٍ آخر يقول: اللَّهمَّ أعطِ مُنْفِقاً خَلَفاً وأعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»(٢). وأيضاً قال الله تعالى في حديث قدسي: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ».

وقالَ رسول الله ﷺ: «يا ابْنَ آدَمَ إنّكَ إنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ - أي: ما زَادَ على الحاجة - خيرٌ لكَ، وإنْ تُمْسِكْهُ شرٌّ لكَ، ولا تُلامُ على كفَافٍ - أي: إمساك قدر الكفاية - وابْدأ بمَنْ تعولُ، واليَدُ العُلْيَا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»(٣).

وقالَ ﷺ: «ما طلعتْ شمسٌ قطُّ إلّا وبجنبيها مَلَكانِ يُنَادِيَان: اللَّهمَّ مَنْ أَنْفَقَ فأعْقِبْهُ خَلَفاً، ومَنْ أمسَكَ فأعْقِبْهُ تَلَفاً»(٤).

وقال ﷺ: «أيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إليهِ مِنْ مالِهِ؟» قالُوا: يا رسولَ الله مَا مِنّا

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤٤٢ «الفتح»، ومسلم ٢/ ٧٠٠، من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٥/ ٣٣٣٣، من حديث أبي هريرة.
(٣) صحيح مسلم، ج ٢/ ٧١٨، من حديث أبي أمامة.
(٤) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٧، وابن حبان ٢/ ٦٨٥، والحاكم ٢/ ٤٤٥، من حديث أبي الدّرداء، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، ووافقه الذهبي.

أحدٌ إلّا مالُهُ أحبُّ إليه مِن مالِ وَارِثِهِ، قال: «فإن مَالَهُ ما قدَّمَ ومالُ وارثِهِ ما أخَّرَ»[١].

وقال ﷺ: «لا تُوْكِيْ فيُوكأ عليكِ»[٢]. أي: لا تدخري وتمنعي ما في يدكِ فتُقطَعُ مادّةُ بركةِ الرّزقِ عنكِ.

(١) صحيح البخاري ١١/ ٦٤٤٢ «الفتح»، وأحمد ١/ ٣٨٢، والنسائي ٢/ ١٢٥، من حيث ابن مسعود.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٠٩١ «الفتح»، وصحيح مسلم ٢/ ٧١٣، من حديث أسماء.

obeikandl.com